الموضوعية والانطباعية في قراءة النصوص الشعرية (أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني نموذجاً)

أ.م.د.ثائر عبد الزهرة لازم
قسم اللغة العربية /كلية الآداب /جامعة البصرة
Email: thaer.abdalzahra@uobasrah.edu.iq

Subjective and impressive method in reading the poetic texts
Lights of springs in sorts of creation by Ibin Masum ElMedeni as an example

By Assistant Professor: _ Thaer Abdelzahra Lazim
University of Basrah \College of Arts \Arabic Language Department

الملخص :

يحاول هذا البحث دراسة الجهود النقدية عند ابن معصوم المدني ، في كتابه الموسوم (أنوار الربيع في أنواع البديع). وذلك من أجل استجلاء الخطوات الإجرائية ، والمفاهيم التي يتبناها ابن معصوم المدني في مجال النقد التطبيقي ، المتمثل في قراءة النصوص الشعرية من خلال معطيات الدرس اللغوي، والبلاغي، والعروضي، والذوقي، والتي اتخذت عنده اتجاهين نقديين احدهما موضوعي والآخر انطباعي .والبحث هو ايضاً محاولة لجلاء حلقة مهمة من حلقات تطور الوعي الجمالي العربي ، والكشف عن جوانب الابداع فيه وستكون خطة الدراسة مؤلفة من تمهيد ومبحثين أما في التمهيد سنتكلم عن ابن معصوم المدني وكتابه ثم عن النقد الموضوعي في المبحث الاول والنقد الانطباعي في المبحث الثاني والمنهج المتبع، في هذه الدراسة هو منهج تحليلي إجرائي مع الاحتكاك قليلا بالمنهجين التاريخي والوصفي ، والسؤال الذي سيجيب عنه هذا البحث هو ما منهجية ابن معصوم المدني في قراءة النصوص الشعرية ؟ وأي الاتجاهين كان أكثر وضوحاً من غيره عند ابن معصوم المدني وهل فصل بينهما في نقده أم كانا منصهرين على وفق رؤيته النقدية .

الكلمات المفتاحية: النقد الادبي، القراءة الشعرية، ابن معصوم المدني، المنهج النقدي، النقد التطبيقي، تحليل النص الشعري.

Abstract

This research is a study of the critical efforts in Ibin Masum ElMedeni' s book named (lights of spring in the sorts of creation) to explore the steps to be processed and the concepts adopted by Ibin Masum ElMedeni in the field of the applicable criticism embodied in reading the poetic texts throughout the givings of the linguistic ,rhetoric ,stanza and tasteful lesson that take two critical directions one of which is subjective and the other is impressive .The research is also an attempt to discover an important period of developing the Arabic beauty consciousness as well as revealing the creative sides in it .The plan of this study will consist of a preface and two discussions .In the preface we will talk about Ibin Masum ElMedeni and his book then will talk about the subjective criticism and the impressive criticism .The method we follow in this study is analytics and keep in touch a little with the historic and descriptive method .The question this study will answer is ,what the method Ibin Masum ElMedeni used in reading the poetic texts? which direction is clearer the subjective or the impressive ?did he separate or match between them according to his critical vision.

Keywords: Literary criticism, Poebic reading, Ibn Masum Al-madani, Critical Approach, Analysis of poetic.

التمهيد :

التعريف بابن معصوم المدني وكتابه أنوار الربيع في أنواع البديع :

1-ابن معصوم المدني :هو علي بن أحمد نظام الدّين بن محمد معصوم بن أحمد نظام الدّين(1).الملقب بالمدني نسبة إلى المدينة المنورة التي ولد فيها عام 1052ه (2)، وتشير المصادر إلى أنه عاش في مكة المكرمة بعد سفر والده إلى الهند بسنتين (3)، ثم هاجر من موطنه الأصلي الحجاز إلى الديار الهندية سنة 1068هـ ، وفي اثناء هذه الرحلة ألف كتابه المعروف بـ(سلوة الغريب وأسوة الأديب) الذي سجل فيه مشاهداته وما لاقاه في رحلته تلك. ويذكر أنه مكث في الهند ثماني وأربعين سنة(4).

نشأ ابن معصوم المدني في بيئة ترعى العلم والأدب وتثيب أهله، وتأخذ بأيديهم، نحو تحصيله ولا أدل على ذلك من كثرة الكتب والمكتبات(5)، التي نهل منها ثقافته المتنوعة ،إذ لم يقتصر في

ذلك على علم بعينه ، بل تعدّدت ميادين ثقافته فبرز في علوم كثيرة . فهو بلاغي ومؤرّخ وكاتب سير وتراجم ولغوي ونحوي وأديب ،وقد جمع هذا كله بنهم القارئ العالم حتى امتلأت بها مؤلفاته وزخرت، فكتب أكثر من عشرين مؤلفاً، والتقى بأفضل العلماء فأخذ عنهم اللغة والأدب والنحو والفلسفة والفقه ومن بين هؤلاء العلماء أبوه الأمير أحمد بن محمد معصوم الذي كانت له مكتبة عامرة بأمهات مصادر الفكر والثقافة العربية والإسلامية وقد أفاد منها ابن معصوم المدني أيما فائدة، إذ كانت تمده بالكتب والمصادر كلما احتاج الى ذلك(6).

وهكذا كانت أسرته لها الأثر في تهيئة أسباب العلم ، إذ كان أبوه وأجداده من العلماء الكبار في علوم الدنيا والدين وكانت لهما مراسلات مع كثير من الأدباء والعلماء العرب والمسلمين، يتبادلون معهم الرسائل ويتهادون التصانيف، وكانت تحيط بهم مجموعة مرموقة من الأساتذة والشيوخ في حيدر آباد. وفي تلك البيئة وهذه الأسرة ترعرع ابن معصوم المدني وارتبط بالعلم والأدب منذ نعومة أظفاره، فكان له اسهام واضح في النشاط الثقافي، على أنه أتقن فضلاً عن اللغة العربية اللغتين الفارسية والهندية ولا سيما أنه كان يعيش في بيئة علمية، يلتقي خلالها بالأعلام المشهورين في كل بلاد كان يحط الرحال بها (7)

لقد صنّف ابنُ معصوم في علوم زمانه مصنفات، توزعت بين اللغة والنحو والبلاغة وغيرها، وتنوّعت بين الكتب والكشاكيل والرسائل، وقد أشار مترجموه، إلى معظمها أو إلى بعضها، ونوّه آخرون إلى فقدان الأخرى، وقد أشار هو إلى بعض منها مثل (نفثة المصدور) و(محك القريض) وسلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر وأنوار الربيع في أنواع البديع ومعجم الطراز الأول ، والدرجات الرفيعة ، ورياض السالكين ،والرحلة الشهيرة (سلوة الغريب) وغيرها .((وكانت لمؤلفاته الغزيرة شهرة ذائعة ، ومكانة رائعة ، تدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه ،واحاطته ومواصلته البحث طوال حياته))(8) .

واشتهر ابن معصوم المدني شاعراً، له ديوان ضم ما يقرب من خمسة آلاف بيت ، وقد وصفه محقق الديوان مدلاً على مكانته الشعرية فقال:((إنه من أبرز شعراء عصره، بل لا أغالي إذا قلت أنه من عداد شعراء العصر العباسي))(9)، أما محقق نشوة السلافة فنبه على مقدرته الشعرية وإنه ((عالم بالأدب والشعر والتراجم وفي شعره رقة))(10) ومن هنا فلا شك أن الخبرة الشعرية ستضيف للممارسة النقدية بعداً جديداً ، وتجعل ممارسة الشاعر النقدية لشعر سواه ذات أهمية خاصة بسبب توفر مفردات تلك الخبرة والإحاطة بالفن الشعري أو ما ذكره ابن رشيق على لسان أبي نواس من أنه لا يعرف الشعر إلا من دفع إلى مضايقه(11)،توفي ابن معصوم المدني بشيراز في عام1120ه (12).

2-أنوار الربيع في أنواع البديع :

ألَّف ابن معصوم المدني كتابه هذا في عام (1093 ه)(13) ،ليكون شرحاً لبديعيته التي نظمها في مدح الرسول (ص) عام (1077ه)(14). وتقع بديعيّته في 154 بيتاً (15)،ونهج المصنّف في كتابه نهجاً يقوم على عرض الفن البديعي، فيعرفه باللغة والاصطلاح، ثم يذكر الشواهد التي

تدعمه من القرآن الكريم والشعر العربي في مختلف العصور وقد أشار إلى منهجه في المقدمة ورأى أن يكون ((شرحاً حافلاً ، يكون بإبراز مخدرات معانيها كافلاً وأورد فيها جملة من البديعيات ، ليتأمل الناظر هذا المضمار مجرى السوابق ، ويميّز بثاقب نظره بين اللاّحق منها والسّابق ، وليكن على ذكره ما قاله أبو العبّاس المبرد في الكامل وهو القائل المحق ، ليس لقديم العهد بفضل القائل ، ولا لحدثانه يهتضم المصيب بل يعطي كل ما يستحق))(16)، وكان من منهجه ايضاً أن يستشهد ببديعيات غيره مقارناً ذلك ببديعيته، فذكر ابن جابر الأندلسي (ت 780ه)،وعز الدين الموصلي (ت789هـ)،وابن حجة الحموي(ت 837ه)، وكان الأخير أكثرهم تعرضاً لنقد ابن معصوم المدني، إذ وصفه بأنه مبالغ على جاري عادته في الإطراء فيما يعجب به(17)، فصحّح له فيما أخطأ(18).

وفي كتاب (أنوار الربيع في أنواع البديع) قضايا لغويّة ،ونحويّة، وبلاغية وشرح للشعر العربي عبر عصوره المختلفة فضلاً عن شعر معاصري ابن معصوم المدني ولا سيما شعر عائلته وشيوخه وبعض من ترجم لهم في (السّلافة). وعلى هذا يعد كتابه بحق من الجهود العلمية التي لا يمكن اغفالها في ذلك العصر الذي ظل فيه الأدب راكناً إلى الضعف والجمود, منذ أن وثب الأعاجم على مقاليد الحكم في البلاد العربية, ولعل ذلك هو السبب الرئيس في أن يفقد الأدب روحه ومكانته, وانحصر في مجموعة قوالب من منظوم الكلام, وزخارف اللفظ ترجع في مجملها إلى المحسنات البديعية, وغيرها من وسائل التلاعب بالألفاظ والأحاجي والألغاز, لذا فقدت الألفاظ الشعرية دلالتها, فلم يعد شعراء هذا العصر يهتمون بدور الكلمة الشعرية, المعبرة الموحية والمؤثرة في الإحساس والوجدان, بل كان اهتمامهم منصباً على أنواع البديع والتفنن فيه, فزينوا ألفاظهم ,وزخرفوا أشعارهم بالسجع والجناس ونحوهما, من فنون البديع , حتى كثرت المؤلفات فيه ,فأطلق عليها (البديعيات), مثل بديعية عز الدين الموصلي, وصلاح الدين الصفدي (ت711هـ), وصفى الدين الحلي(ت723هـ)، وابن حجة الحموي وغيرهم كثيرون, ممن أولعوا بهذا الفن البديعي, وأولوه اهتماما وعناية, خاصة, وقد حفل بهذا النوع البديعي شعراء وأدباء ونقاد كثيرون, إذ يرونه بدعة العصر, وزينة الشعر وحسنه . (19)

وقد اطلع ابن معصوم المدني على هذه البديعيات، ودخل مع أصحابها في حوار ونقاش سواء أكان ذلك في شواهدهم أم في أبيات بديعياتهم، وشروحها وكشف أخطاءهم في اللغة والبلاغة والعروض، فاستحسن واستهجن ما جاء من البلاغة في الشعر والنثر محكما قواعد، ومقاييس النقد العربي ومعتمداً على حسه وذوقه بفعل ثقافته الواسعة، هذا ولأهمية كتاب (أنوار الربيع في أنواع البديع) بما تضمنه من نكات بلاغية انفرد فيها ابن معصوم المدني فقد عدّه الدكتور أحمد مطلوب آخر من وقفت عنده البلاغة في القرن الثاني عشر للهجرة(20) طبع هذا الكتاب مرتين، الأولى على الحجر في إيران سنة 1304هـ بجزء واحد ضخم، والثانية بمطبعة النعمان في النجف الأشرف سنة 1388-1389هـ، بعد تحقيقه من السيد شاكر هادي شكر، وقد صدر بسبعة أجزاء، وأرخ ابن معصوم مؤلفه هذا فقال(21):

تاريـخ ختمـي لأنوار الربيـع أتـى (طيب الختام) فيا طـوبى لمختتـم

المبحث الأول :النقد الموضوعي :

إن دراسة نصوص من النقد العربي القديم ومعرفة مدى اختلافها من ناقد إلى آخر تضعنا أمام حقيقة تومئ إلى إدراك ما يمكن أن يمنحنا تراثنا النقدي المشرق من وهج وإضاءة تعزز قناعتنا بان المهمة الفنية التي ينجزها الشاعر تظل خفية ما لم تظهر القراءة إلى الوجود وذلك بأن تمنحها التحقق الجمالي بالتلقي الذي يوقفنا أيضا على الجهد النقدي العامل على إيجاد احسن طرائق القراءة وأوفاها انطلاقا من كون ((القراءة دليل الحيوية والتجدد وانها طريق مهم من طرق العناية بالنص)) (22).

وهذا يعني أن قراءة النصوص ونقدها ليس اعتباطياً إنه علم وصناعة يرتبط بالنظر والمعاينة ولهذا قال ابن سلام الجمحي ((وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر اصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الإذن ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان .. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم .. يعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها))(23) .

على أن القراءة الحقيقية لا تعترف بالنقد الذي يحاول السيطرة على النص بأدوات معرفية ذهنية عقلية خالصة من دون العناية بذاتية الناقد. ومن هنا فإذا كان النقد في مراحله الأولى ينشأ من بذرة التذوق المرهف فعلى الناقد أن ينميها للإفادة منها في نقده، وقد تجسد ذلك كله عند ابن معصوم المدني. إذ كان واحداً من النقاد العرب القدماء الذين جعلوا الحَدْس والذوق المرهف أساس النقد، ثم تطور عندهم إلى الفحص الدقيق للنّص ومنهجه وتحليله في بنيته السياقية، وفي عناصره المكونة له.

وبما أنّ لكل نصٍ شعريٍ خصائصه الفنية فلا بد للناقد أن نستعين بالنقد للكشف عن تلك الخصائص. ذلك أن مفهوم النقد الأدبي هو ((فن تحليل الآثار الأدبية))(24)، أو هو المنهج الذي ((تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصّل القول فيها ويبسّط عناصرها ويبصّر بمواضع الجمال والقبح فيها))(25).

و تتبلور أهمية المنهج في تحليل ومعالجة النصوص الأدبية تحليلاً علمياً قائم على جملة من القواعد المعرفية والثقافية يعتني بها الناقد من أجل الخروج بأحكام نقدية مبررة ، على أن غياب المنهج في النقد يؤدي إلى طغيان التأثرية والانطباعية، وهذا يعني تحويل النقد إلى مجرد كونه تذوقاً وانطباعات عامة .

وانطلاقاً من اختلاف أساليب النقاد بناءً على اختلاف المنهج المعتمد في النقد، فقد كان لابن معصوم المدني منهجيته في قراءة النصوص الشعرية إذ اتسمت جهوده النقدية بمعالجة النصوص المبدعة بروح تجمع بين المعيارية والموضوعية، وبين المنحى الذاتي التأثري الجمالي .

وعلى هذا الاساس جعل ابن معصوم المدني النص الشعري منطلقاً لتأملاته ، وقراءآته النافذة فيما اصطفاه من شعر في كتابه (أنوار الربيع في أنواع البديع)، فكانت علاقته بالنصوص علاقة استكشاف، فهو قارئ ممتاز بقدراته الفنية وأدواته، ونفاذ بصيرته وما اتصف به من حس لغوي أصيل وذوق صقلته الدربة والتمرس بقراءة الإبداع، وإدراك أبعاده الفنية وقيمه الجمالية، وهو الأساس الذي ينبني عليه النقد ذاتياً أو موضوعياً .

لقد طفق ابن معصوم المدني يستهجن الركة والضعف في الشعر، وبين أسباب ذلك، ومنها ابتعاد الشاعر عن التراكيب السّليمة، وعدم مراعاته النظم الجيد والسليم، الذي دعا إليه عبد القاهر الجرجاني، وسار عليه النقاد فيما بعد وما درسه القدماء في علم المعاني (26).

ومن جوانب نقده اللغوي عنايته بأخطاء الشعراء، والعمل على تقويمها فالشاعر بسبب أو بآخر قد يقع في الخطأ وقد يخرج بتعبيره عن الصيغة الصحيحة ، فإذا لم يجد من يقوّم له لحنه تكرر ذلك منه، وربما قلده غيره فيشيع الخطأ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في تعليقه على تعدية الفعل (ذر) ب(عن) لسبب معنوي لم يتحقق، وذلك في مطلع بديعية إسماعيل المقريء(27):

شارفت ذرعا فذرعن مائها الشبم وجزت نملى فنم لا خوف في الحرم(28)

إذ قال :((تعدية (ذر)ب(عن) ، لا يصح إلا على تضمينه معنى تنح ، وقد قال الله سبحانه :﴿ **ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾(الأنعام ، 91)، ولم يسمع ذر عنه، والتضمين لا ينقاس كما نص عليه العلامة أبو حيان))(29).

وكذلك لما عدّ ابن حجة الحموي (إلاّ) الشّرطية استثنائية ،إذ قال: ((ومن الاستثناء نوع سماه ابن أبي الاصبع ، استثناء الحصر ،وهو غير الاستثناء بإخراج القليل من الكثير، ونظم فيه قوله :

إليك وإلاّ لا تحثُّ الرّكائب وعنك وإلاّ فالمحدث كاذب

فإن خلاصة هذا البيت : لا تحث الرّكائب إلاّ إليك ، ولا يصدق المحدث إلاّ عنك)) (30)، ردّ عليه ابن معصوم المدني بقراءة بيّن فيها الخطأ الذي وقع فيه الشاعر والقارئ في آن واحد فقال: ((أما لفظ البيت فليس فيه استثناء ف(إلا) المذكورة في صدره وعجزه ليست هي الاستثنائية ، وإنما هي بمعنى (إن لم فهي كلمتان (إن) الشرطية و(لا) النّافية مثلها في قوله تعالى : ﴿**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ** ﴾(سورة التوبة 40) لأنّ تقدير البيت هكذا : إليك تحث الرّكائب وإلاّ ، أي وإن لم تحث إليك لا تحث ، وعنك يحدث المحدث وإلاّ ، أي وإن لم يحدث عنك فالمحدث كاذب أو ما معناه الذي ذكره فالاستثناء فيه ظاهر ، فعلى هذا فالأليق أن يسمى هذا استثناء معنوياً لئلا يتوهم من لا له دربة في العربية أن (لا) فيه هي الاستثنائية فيخبط خبط عشواء))(31).

وبهذه المتابعة العلمية الحثيثة المبنية على التحليل والتعليل يمضي ابن معصوم المدني في كشف الأخطاء النحوية واللغوية في الشعر، ولعل هذا يتجلى كثيراً في ردوده على من تقدمه من

البلاغيين والنقاد ومن أبرز هؤلاء ابن حجة الحموي الذي خالفه في اغلب شروحه فمثلاً لم يستحسن معنى صدر بيت عز الدين الموصلي:

والعين قرَّت بهم لما بها سمحوا واستخدموها من الأعدا فلم تنمِ(32)

على الرغم من استحسان ابن حجة الحموي له إذ قال: ((والعين قرت بهم لما بهم سمحوا، في غاية الحسن))(33)؛ معللا ذلك ((إنّ الذي استحسنه من الشطر الأول ليس بشيء من جهة المعنى ، وإن كان حسناً من جهة اللفظ ، لأنّ قوله : لما بها سمحوا ، يعني بعين المال لا يناسب الغزل ، فإنّ السماح بالمال يكون من جانب المحب لا من جانب المحبوب ، وهذا لا يليق في صفة ممدوح طلب صلته ، لا محبوب طلب وصله))(34).

وفي موضع آخر من كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع يتصدى ابن معصوم المدني لأبي منصور الثعالبي ، إذ أستهجن مطلع المتنبي :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا ثمّ انصرفت وما شفيت نسيسا(35)

مخالفاً رأي الثّعالبي في (هذي) إنّها منادى ،بقوله :((أجيب عن حذف علامة النّداء من (هذي) بأن(هذي) مفعول مطلق ،لا منادى أي برزت لنا هذي البرزة ..))(36).

لقد عمد ابن معصوم المدني إلى توظيف أدواته النحوية واللغوية وهو يعالج النصوص الإبداعية بمنهجيةٍ لا تغفل النص على حساب الآراء التي قيلت فيه سلفاً ، إذ لم يكن تقليديا في مقارباته النقدية يدين بالتبعية لسابقيه، فهو على الرغم من تأثره بهم في مجالات معينة، لم تخل قراءته من الرؤية الخاصة والنهج المستقل، اللذين اتاحا له النظر في النصوص الإبداعية، وإصدار الأحكام فيها ، وكذلك النظر في أحكام غيره وإبداء الرأي فيها، حتى وإن كانت لشيخ رئيس، أو ناقد نحرير. إذ لم يتقبل آراء سابقيه ومعاصريه دون فحص وتمحيص. وهذا ما يجب أن يتحلى به الناقد الموضوعي على أن إعادة النظر في جميع الأحكام الرائجة في التاريخ الأدبي ، هو ما يمكن تلمسه من الموقف النقدي لابن معصوم المدني ،إذ يدعو إلى منهج في البحث من أجل إنصاف شعر الشعراء في زمانهم ومكانهم وفي حدودهم الأخلاقية والفكرية ، وانطلاقاً من هذا لا نجده متردداً في أحكامه النقدية ، إذ يسير بخطى راسخة على وفق المنهجية التي اختطها لنفسه في قراءة النصوص الشعرية ،فيدل على الخطأ أينما وجد ، ومن ذلك تعليقه على بيت أبي نواس ضمن أبيات منها :

ساعٍ بكأسٍ إلى ناشٍ على طربِ كلاهما عجبٌ في منظرٍ عجبِ (37)

قامتْ تُريني وأمرُ الليلِ مجتمعٌ صبحا تولد بين الماء والعنبِ

كأن صغرى وكبرى من فَواقِعهَا حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذّهبِ

إذ قال : ((إنه يجب استعمال (فعلى أفعل) بأل أو بالإضافة ، وقد استعمل أبو نواس بدونها فهو لحن ، وأجاب بعضهم بأن (من) زائدة فصغرى وكبرى مضافان على حد قوله : بين ذراعي وجهة الأسد ، ورُدَّ بأن (من) لا تقحم في الإيجاب ولا مع تعريف المجرور ، والجواب الصحيح ، إن اسم التفضيل المجرد ربّما جاء مطابقاً ، وذلك إذا قصد أصل الفعل لا المفاضلة ، فتكون (صغرى) و(كبرى) في البيت بمعنى صغيرة وكبيرة فلا لحن فتأمل))(38) .

وهكذا كان لمقاييس المنهج الفني عند ابن معصوم المدني أثر واضح في قراءة النصوص الشعرية، بوصفه أقرب المناهج إلى طبيعة الفنون عامة ، فهو منهج (ذاتي موضوعي)، يعتمد على التأثر الذاتي للناقد ويعتمد على عناصر موضوعية وعلى اصول فنية وذلك ما يتجلى أكثر في اهتمامه بالتشبيه ، إذ شغل مساحة واسعة من كتابه ويتجسد ذلك بموازناته المعللة ، فمثلاً كان يرى إن قول أبي بكر الصنوبري :

وكأن أجرام النّجوم لوامعا درٌ نثرن على بساطٍ أزرق (39)

أفضل من قول ذي الرمة :

كحلاء في برج صفراء في نعج كأنها فضة قد مسها ذهبُ (40)

وللتفضيل مسوغاته ((لأن الأول مما يندر وجوده دون الثاني فإن الناس أبدا يرون في الصياغات فضة قد موهت بذهب ولا يكاد يتفق أن يوجد درر قد نثرن على بساط أزرق ..))(41)،ولعل أكثر ما استوقف ابن معصوم المدني في باب الموازنات، نظم شاعرين أو أكثر أشعاراً تتناول معنى واحداً، وهو ما وفر له مجالاً للنظر في النصوص الشعرية، وفحص وحداتها وعناصرها وتحديد مواطن الجودة فيها، وكشف العيوب والأخطاء التي من شأنها تأخير نص على آخر، وهو ما يتفق والمنهج الجمالي الذي اتبعه في مقارباته مع الشعر بعامة. حيث راح يقيد أحكامه النقدية بالنص الإبداعي الذي حرص على التوقف عنده بعيداً عن شخص مبدعه، أو منزلته، أو عصره، وهو ما دفعه إلى الإحجام عن ذكر اسم الشاعر في كثير من النماذج الشعرية والشواهد التي قدمها في مسائل عديدة ، فيقول مثلا: (وقال الآخر أو : فقال الشاعر) وهو سلوك منه يرمي إلى إيصال إشارة إلى المتلقي مفادها أن شخص الشاعر لا يهم بقدر ما يهم شعره . فإذا كان هذا الأخير جيداً، كان جديراً بالتقديم والثناء أما إذا كان رديئا فلن يرفع من قيمته اسم قائله، أو حسبه، أو سلطانه ، أو عصره .

فالفيصل عنده إذن، هو عنصر الجودة، لا يهم مصدر الشعر مثلما لايهم زمنه، فالجمال الفني هو مدار الأمر وعين القضية،حتى لو تجسد ذلك في أشعار ألد الأعداء. أما من يُسقّط شعراً بسبب عرق صاحبه، أو مذهبه، أو زمنه. فهو لا يبصر بجوهر ذاك الشعر، ولا علم له بحقيقة ذاك الفن. ومصداق ذلك ما جاء في تعليقه على قول بشار بن برد :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسِنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(42)

فهو أعلى طبقة من قول أبي الطيب المتنبي :

يَزورُ الأعادي في سَماءِ عَجاجةٍ أسِنتُهُ في جانبيها الكواكِبُ (43)

ومن قول الآخر:

تبني سنابكها من فوق أرؤسهم سقفا كواكبه البيض المباتير

وعلل ذلك ((بأن كل واحد منهما وإن راعى التفصيل في التّشبيه فإنه اقتصر على أن أراك لمعان السيوف في أثناء العجاجة بخلاف بشار فإنه لم يقتصر على ذلك بل عبر عن هيئة السيوف ، وقد سلت من اغمادها ، وهي تعلو وترسب ، وتجيء ، وتذهب ، وهذه الزيادة زادت التفصيل تفصيلاً ، لأنها لا تقع في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن للسيوف في حال احتدام الحرب واختلاف الأيدي فيها للضرب اضطراباً شديداً ، وحركات سريعة ثم لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوال تتقسم بين الإعوجاج، والإستقامة والإرتفاع والإنخفاض، ثم هي باختلاف هذه الحقائق بكلمة واحدة هي قوله (تهاوى) فإن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها ، وكان لها في تهاويها تدافع ، وتداخل ، ثم أنها بالتهاوي تستطيل أشكالها . وأبلغ التشبيه ما كان من هذا النوع لغرابته ، ولأن نيل الشيء والاشتياق له ألذُ ، وموقعه من النّفس ألطف ، وبالمسرة أولى ، ولهذا ضرب المثل لكل ما لطف ببرد الماء عن الظمأ))(44).

ونلاحظ أن ابن معصوم المدني إنما يأتي تفضيله للتشبيه لإضفائه غرابة في الشعر تزيد من جمالية الصورة الشعرية، إذ عدّها خصيصة يستحسن توافرها في النصوص الإبداعية فأكثر الوقوف عندها قارئاً ومحللاً ومن ذلك ما جاء بصدد أعجابه ببيت ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غرابا ذا قوادم جونِ(45)

لأنه ابلغ في الاستقصاء والتفصيل حيث أن الشاعر شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن يكون قوادم ريشها بيضاً، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع حواشيها من حيث يلي معظم الصبح وعموده لمع نور يتخيل منها في العين كشكل قوادم بيض . وتمام التدقيق في هذا التشبيه ، أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ورفعه ظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ولا يرضى منها بأن تتمهل في حركتها ، ثم لما راعى ذلك في التشبيه ابتداء راعاه أخيراً، حيث قال: (نطير غرابا) ولم يقل: غراب يطير ونحوه، لان الطائر إذا كان واقعاً في مكان فازعج وأطير منه، أو كان قد حبس في يد أو قفص فارسل كان لا محالة أسرع لطيرانه ، وأدعى له أن يستمر على الطيران حتى يصير إلى حيث لا تراه العيون، بخلاف ما إذا طار عن اختيار ، فانه حينئذ يجوز أن لا يسرع في طيرانه وأن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول . (46)

وهنا يرى ابن معصوم المدني أن الغرابة في التشبيه تتحقق من وجهين، الأول: قلة تكرار المشبه به على الحسن والثاني: كثرة التفصيل(47) في وجه الشبه (48) وعلى هذا جاءت قراءته ايضاً لبيت امرئ القيس :

حملت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان(49)

لتضمنه التفصيل إذ قصر الشاعر التشبيه على مجرد السنا ، وتصويره مقصورا عن الدخان ، ومعلوم أن هذا لا يقع في الخاطر أول وهلة ، بل لابد فيه من أن يثبت وينظر في حال كل من الفرع ، والأصل حتى يقع في النفس إن في الأصل شيئاً يقدح في حقيقة التشبيه، وهو الدخان الذي يعلو رأس الشعلة (50).

و يرى ابن معصوم المدني أن بعض التّشبيهات مبتذلة عامية إلاّ أنها تخرج عن ذلك إلى الغرابة نحو بيت أبي الطيب المتنبي :

لَمْ تَلقَ هذا الوَجْهَ شمسُ نهارها إلا بوجهٍ ليس فيه حياءُ(51)

إذ قال: ((فإن تشبيه الوجه الحسن بالشّمس قريب مبتذل لكن حديث الحياء أخرجه من الإبتذال إلى الغرابة ،لاشتماله على زيادة دقة وخفاء))(52) .

ولابن معصوم المدني في مبحث الاستعارة قراءات تحليلية يربطها بفن الشاعر ومقدرته على حسن التصوير ، إذ اشترط أن تكون الغرابة في نفس الشبه .ومثّل لغرابة الاستعارة بأبيات كُثَيِّر عزّة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح(53)

وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الاباطح

إذ راح يلتمس جمال الاستعارة وغرابتها، ولطفها، في اسناد الفعل (سالت) إلى الأباطح دون المطي أو أعناقها ، حتى أفاد أن الأباطح امتلأت من الإبل .. وأدخل الأعناق في السير ، لأن السرعة ، والبطء في سير الإبل يظهران غالباً في الأعناق ، ويتبين أمرها في الهوادي ، وسائر الأجزاء يستند إليها في الحركة ، ويتبعها في الثقل والخفة (54) .

وقد عقب ابن معصوم المدني حول ما جاء في بيت أبي الطيب المتنبي :

أُحبكِ أو يقولوا جَرَّ نَملٌ ثبيراً وابن إبراهيمَ رِيعا(55)

إذ قرأ بعضهم (((أو)هنا بمعنى (حتى) علق زوال حبه عن محبوبته على جر النمل ثبيراً، لاستحالته عادة لا على أن يرتاع الممدوح لا مكانه عادة ،والمقصود ان حبها لا يزول أبدا

))(56).أمّا ابن معصوم المدني فكان له رأي خاص في هذا البيت تجلى في أن المتنبي علّق زوال حبها على الأمرين حقيقة وادعاء فالحقيقة في استحالة جر النّمل ثبيراً، أما الإستحالة فهي في ارتياع الممدوح ، وهذا السر في معنى البيت ، إذ قدّم المتنبي المستحيل حقيقة على المستحيل ادعاء ، ويبدو أن رأي ابن معصوم أقرب إلى الحقيقة لأنه يتناسب ، وأسلوب المتنبي في نظم الشعر .

وأورد ابن معصوم المدني كثيراً من الاستعارات وما قاله البلاغيون فيها (57)، وسماها (الغريبة) التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة ، وذكر أن الاستعارات الواردة في التنزيل كلها من هذا القبيل (58) و لضيق مجال البحث هنا نكتفي بما سقناه من أمثلة فهي كافية للتدليل على أهمية هذا المبحث عنده بوصفه أبرز الوسائل الفنية التي ينبغي أن تتوافر عليها النصوص الشعرية .

ويعد التذييل(59) من الفنون البلاغية التي تكلم فيها ابن معصوم المدني ممثلاً له بنماذج شعرية تشير إلى الضرب الذي يخرج مخرج المثل ليصل إلى قراءة رد فيها على الخطيب البغدادي الذي استحسن بيت ابن نباته السعدي :

لم يبق جودك لي شيئا أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل(60)

إذ ذهب الخطيب البغدادي إلى أنه من هذا الضرب بينما يرى ابن معصوم المدني أن البيت لم يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد، وتوقعه على ما قبله بسبب كون الخطاب في قوله (تركتني) للسباق ، والمثل لا يكون إلا مستقلاً بمعناه ، منفصلاً عما قبله(61).

وما فتئ ابن معصوم المدني يعقب على كثير من المغالطات التي وقع فيها بعض ممن تصدوا لتقويم الشعر ،إذ نبه على الخلط الحاصل منهم في الفنون البديعية ومن أمثلة ذلك ماجاء في رده على ابن حجة الحموي الذي رأى أن بيت عوف الخزاعي :

ان الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان(62)

هو أبلغ شواهد التكميل . إذ قال :((لئن غلط من خلط التتميم بالتكميل ، فقد غلط ابن حجة فخلط التكميل بالإعتراض والبيت المذكور أبلغ شواهد الإعتراض) ويسترسل ابن معصوم في رده على نقد ابن حجة الحموي ليبين سبب وقوع الأخير في هذا الخطأ فقال(وليس كل زيادة جيء بها مع تمام المعنى تسمى تكميلاً وإلا لم يبق بين الإعتراض والتكميل فرق .بل التكميل الزيادة التي جيء بها تكميلاً للمعنى الأول الذي ذكره المتكلم ، والاعتراض هو الزيادة التي جيء بها لنكتة ليس الغرض بها تكميل المعنى السابق . وكذلك قوله في البيت (وبلغتها) فانها زيادة جاء بها الشاعر للدعاء لا لتكميل غرضه من الاعتذار الذي قصده . على ما يحكى : ان عوف بن محلم الخزاعي صاحب البيت سلم عليه عبد الله بن طاهر ، فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فدنا منه وأنشده قصيدة منها البيت المذكور. وبذلك يتضح الفرق بين الاعتراض والتكميل والتتميم))(63). ثم قام ببيان الفرق بين التكميل والتتميم فقال : ((إن التتميم يرد على المعنى الناقص فيتم ، والتكميل ...

يرد على المعنى التام فيكمله ، اذ الكمال أمر زائد على التمام))(64)، وهنا نلحظ أن ابن معصوم المدني قد اعتمد في تحليله هذا على النظر إلى السياق لا إلى النص فحسب فتمكن بذلك من وضع اليد على مسألة اللبس الذي وقع فيه ابن حجة الحموي وهذا يدل دلالة واضحة على أن ابن معصوم المدني يصدر عن منهجية نقدية فاحصة لم يترك شاردة ولا واردة مما يؤخذ على الشاعر أو يسجل له إلا وأشار إليها .

وإلى جانب ما تقدم اهتم ابن معصوم المدني بموسيقى الشعر العربي ، فكانت له قراءة جيدة نبه فيها على كل ما يراه لا يتناسب مع القواعد الخاصة بموسيقى الشعر، والعيوب العروضية ، فمثلاً عندما جعل ابن حجة الحموي قول الشاعر :

اعلموا أني لكم حافظ شاهدا ما كنت أو غائبا

دليلاً على صحة ما ذهب إليه في وزن الآية الكريمة **(واصنع الفلك بأعيننا)هود /37** في أنها من العروض الثانية المحذوفة في المديد، نجد أن ابن معصوم المدني قد خالفه في تخريجه لوزن الآية وبيت الشعر في آن واحد، فهي عنده من العروض الثالثة المحذوفة المخبونة ، لأن العروض الثانية المحذوفة لها ثلاث أضرب ، وكل منها وزن العروض فيه (فاعلن)والعروض في الآية وزنه (فعلن) كما رأيت في تفعيله، لا فاعلن)(65).

وكان ينفر من أخطاء القافية التي تبعد الشعر عن مناسبة الذوق ، وعندما يواجه مثل هذه الأخطاء الموسيقية لا يستحسنها منبهاً على ضرورة ، تنقيح الشعر منها، واختيار ما يناسب العرف ، والذوق ،وما يؤكد ذلك تعقيبه على بيت عز الدين الموصلي الآتي :

فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم ولا اقتباس يرى من هذه الاطمِ(66)

إذ بيّن ان الشاعر استعمل القافية (الأطم) فأشار إليها ب(هذه) تصوراً منه أن (الأطم) جمع وذهب عنه إنها مفردة ، وجمعها آطام ، وأطوم (67).

المبحث الثاني :النقد الانطباعي :

من العبث تجريد قارئ النصوص الإبداعية من ذوقه الخاص واستجاباته الذاتية وميوله النفسية ،لأن الانطباعية في تقدير العمل الأدبي أساس الموضوعية ، ومن هنا فالذوق عنصر جوهري في نقد الشعر ، وإذ نطلق كلمة الذوق فإننا نروم ذوق الناقد – ذلك الذوق الذي مرده إلى أصالة الحاسة الفنية وإلى الدربة والمران والتثقيف (68).

والذوق أداة الناقد في الولوج إلى فضاء النص ، وبدونه لا يمكن أن يتم الاحساس به ، لأن الانتاج الفني نشاط عقلي قائم على العاطفة والخيال والفكر، والتذوق أيضاً نشاط عقلي ووجداني معاً، واللذة الجمالية واحدة في طبيعتها عند الفنان ومتذوق نتاجه (69).

وإذا كان التذوق هو المقدرة على الاستمتاع بالجمال، فإنه أيضاً هو قوة الحكم على الشيء أو طريقة تمثله استحساناً أو استهجاناً ،من غير قاعدة يقاس عليها ، فحكم الذوق حكم خالص، مجرد من الغاية شأنه في ذلك شأن اللذة (الاستاطيقية) والانتاج الفني نفسه (70).

على أن الذوق هو تلك الموهبة الإنسانية التي أنضجتها رواسب الأجيال السابقة ، وتيارات الثقافة المعاصرة في عصر قوتها ونضجها ، التي امتزجت جميعها فكونت هذا الشيء المسمى بحاسة التمييز والتذوق الأدبي (71) .

وفي ضوء هذا، فالناقد يعني بتربية طويلة شاقة، أو يعالج ملكته المشحوذة بالتثقيف والتهذيب عن طريق اكتساب المعرفة وتهذيب العقل، وترويض النفس وقد شغلت قضية الذوق نقادنا القدماء الذين حكّموه في نقدهم، على نحو ما فعل علماء الجمال المعاصرون، ورأوا أن المقاييس والقواعد التي جهدوا في جمعها لا تكفي للحكم على الأثر الأدبي، وأن الذوق المدرب هو الفيصل حين تخفق القواعد والقوانين (72).

وقد عاب عدد من الدارسين نقادنا القدماء بأمثال هذا النمط النفسي من النقد، ووسموا نقدنا العربي القديم بالانطباعية والتأثرية وغيرها من النعوت، ولكن امثال هذا الرأي بعيد عن الموضوعية لأن الإنسان يخضع في كثير من الأحيان للجوانب اللاواعية من تكوينه، فيعجب بالجمال، ويتذوقه، ويؤخذ به، من دون أن يعلل لنا سبب الإعجاب، وهكذا هو الناقد،يحس بالأثر الجمالي في النص فيعبر عن احاسيسه ، معللاً حيناً ، ومهملاً التعليل حيناً آخر، فهو يمتلك ذوقاً يستطيع بواسطته تثمين النص المبدع وتقديره بأمثال هذه الأقوال ، وهذا ما نلمسه حتى في نقدنا الأدبي الحديث ، وعند كبار نقاده ونحن في عصر الألق الحضاري والمعرفي ، ومن أمثلة ذلك في نقدنا العربي ما قاله الأديب الناقد الدكتور طه حسين بعد أن سرد أبياتاً غزلية لبشار، حكم عليها، إذ قال : ((وهي لا تخلو من جودة ورقة))(73).وهو نقد انطباعي ذاتي، غير معلل ونظائر هذا كثير .

وبعد فلا غرو أن يثير العمل الإبداعي شعوراً لدى الناقد , كأن يثير حفيظتهِ النقدية أو يعجب ببعضهِ أو كلهِ أو يميل إليه أو يثير فيه شعوراً عاطفي أو إنفعالي آني بحيث يستوقفه ويترك في نفسه انطباعات أولية تتشكل نتيجة تلاقح رؤاه مع سياقات العمل الإبداعي ومتعالياتهِ , فينتج عن ذلك مؤشرات نقدية تقويمية أولية يطغي عليها الانطباع كسمة أساسية بارزة في الفعل أو القصد النقدي يتم اشباعها لاحقاً بمرجعيات معرفية وثقافية .

إنّ كثرة معايشة ابن معصوم للشعر العربي ، وحفظه له وتداوله إياه، ومراسه قد نمّت لديه ملكة التمييز بين الحسن ،والقبيح أضف إلى ذلك أنه تميز بتعدد المواهب الابداعية ، فقد جمع بين الإبداع الشعري والإبداع النثري، وتنامت لديه الحاسة الفنية مذ كان يشعر، وعلى هذا كان ذوقه ذوق العالم المتمرس الذي عالج الأدب ومارسه . ولعل هذا الاتجاه النقدي يتجلى في استحسانه للنصوص الشعرية تارة واستهجانه لها تارة أخرى تبعاً لما يتركه ذلك الأثر في نفسه، فيأتي استحسانه للشعر بأساليب وصيغ مختلفة ، فبعضها يخص الألفاظ وبعضها يخص التراكيب ،على

أنّ جهده النقدي هذا لا يخلو من قصد مبتغى من وراء وصف النصوص المختارة على وفق رؤية توازي النقد المعلل المعتمد على التحليل ،والتدقيق والتحقيق .

ومن ذلك قوله في شعر مهيار :((ما ألطف عبارته وأدق إشارته وطريقته الغراميّة لا يسلكها أحد إلاّ تشبيهاً فإنها شيء تفرّد به، ولم يشقّ فيها غباره سابق ولا لاحق))(74). فهو هنا لا يعلل اللطف والانسياب إلى القلوب ، وإنما يعبر عن حسه الجمالي، مستعملاً ألفاظ (اللطافة والدّقة والطريقة والتّفرد) وتلك لها مدلولات نقدية .

وكذلك قوله((ما أبدع هذا الفن وأبرعه وأحلاه في النفس وأوقعه))(75)، فجاءت ألفاظ (الإبداع والبراعة ، والحلاوة) لتؤدي أغراضاً يبتغيها ابن معصوم المدني، إذ كثيراً ما وصف ألفاظ الشعراء الموائمة لمعانيها، والمنسجمة مع غيرها والبعيدة عن الغرابة والعامية المبتذلة بالعذوبة، فهي تعني السهولة والسلاسة المستساغة كالماء العذب، ومن ذلك قوله: ((ما أعذب ألفاظه))(76). ويبدو أن دلالة مفردة العذوبة التي أرادها ابن معصوم المدني من هذا الوصف دلالة مغايرة للحوشي السّوقي الذي لم يرتضيه النقاد، إذ قال ابن الأثير ((ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون، وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفمّ ولذاذته في السّمع))(77).

وهكذا استحسن ابن معصوم المدني الألفاظ العذبة غير الحوشية التي تساعد على وضوح المعنى بقوة وقد اعتمد في ذلك الاستحسان على صيغة التعجب، فقال: ((ما ألطف عبارته)) (78).

واعجب بالشاعر الذي توافرت لديه قدرة نظم كلامه،وانسجامه، ورصف ألفاظه فقال عنه((ما أحسن سبكه))(79).

ويبدو أن إعجابه بالنص الشعري يأتي انطلاقاً من شدة إنسجامه ،إذ الانسجام عنده يراد به كل محاسن الكلام وما ينبغي أن يكون عليه من الجودة ، والجمال . وقد اهتم به ابن معصوم المدني، إذ وضع له باباً في كتابه(أنوار الربيع في أنواع البديع) ورأى أن في الانسجام ((أن يكون الكلام عذب الألفاظ، سهل التركيب ، حسن السبك ، خالياً من التكلف والعقادة ، يكاد يسيل من رقته ، وينحدر انحدار الماء في انسجامه ، لا يتكلف فيه بشيء من أنواع البديع إلا ما جاء عفواً من غير قصد))(80). وإذا تحقق الانسجام بشكل كبير جداً فهو غاية لا تدرك وإذا كان أقل من ذلك فهو(بديع الانسجام)(81). وما يؤكد ذلك أعجابه ببعض القصائد المشهورة ، إذ عدها غاية في باب الإنسجام ومنها القصيدة التائية لكُثّير عزة والتي مطلعها:

خليليَّ هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حَلتِ(82)

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

فلا يحسب الواشون أن صبابتي بعزة كانت غمرة فتجلتِ

فو الله ثم الله ما حَلَّ قبلها ولا بعدها من خلة حيث حلت

وكذلك عدَّ ابن معصوم المدني قصيدة الفرزدق في مدح علي بن الحسين (عليه السلام)من بديع الإنسجام ويرى أن هذه القصيدة على الرّغم من أن الفرزدق نظمها بديهية وإرتجالاً إلاّ أن سائر شعره نسيباً ومدحاً وهجاءً لا يدانيها (83).

وإذ أعجب بقصيدة حسان بن ثابت لرقة ألفاظها وجزالتها ، وانسجامها فضلها على كثير من شعر أبي تمام ، والبحتري حتى عدّها أرق من كل ذلك ،إذ قال((ولقد طالعت ديوان حسان فلم أرَ له أسجم من قصيدته التي يفتخر فيها بقومه ، ويعدد أفعالهم ، وقد عنَّ لي اثباتها هنا برمتها ، لأنها جميعاً داخلة في نوع الانسجام))**(84)**

أنسيم ريقك أخت آل العنبر هذا أم استنشأته من مجمرِ

أبديد ثغرك ما أرى أم لمحة من بارق أم معدن من جوهر

أودعتني ببريق ثغرك حرقة ألهَبتِ جمرتها بطرف أحورِ

ونشرت فرعك فوق متن واضح وطويت كشحك فوق خصر مضمر

قولي لطرفك أن يكفَّ عن الحشا سطوات نيران الهوى ثم اهجري

وانهي جمالك أن ينال مقاتلي فينال قومك سطوة من معشري

أني من القوم الذين جيادهم طلعت على كسرى بريح صرصرِ

...

وواضح أن الانسجام ورقة الألفاظ وعذوبتها سبب في استحسان أمثال هذه النصوص الشعرية أضف إلى ذلك تقديمه للمطبوع من الشعر ،على أن أستحسانه هذا قد اعتمد فيه على منهج الموازنة ،الذي امتزج فيه الانطباعي والموضوعي ، إذ فاضل بين الشّعراء ، لانسجام شعرهم ،ووسم هذا النّوع من الشّعر ان كان معناه جيداً مصطلح (المطرب)، وإن كانت موسيقاه عذبة مقبولة فهو من (المرقص) وإن تحقق الاثنان فالنّص من (المطرب المرقص)(85).

وينتقل ابن معصوم إلى استعمال بعض التراكيب ، إذ يجد لها مناسبة لإبداء استحساناته وذلك إزاء استعارات كثيرة مثل:((ومن طريف هذا النوع .. وما ابدع قوله .. وما أطرف قول .. وما أرق قول ، وما ألطف قول .. وقول .. وهو من غريب الاستعارات .. ومن بديع الاستعارات على سخفه ، ومجونه قول .. ومما وقع لي أنا في باب الاستعارة قولي ومن الموشحات،التي اشتملت على بديع الاستعارة قول ..))(86).((وما احسن سبكه))(87) .

وأعجب ابن معصوم ببعض المعاني الشعرية فقال: ((ما أبدع هذا المعنى وأبرعه وأحلاه في النّفس وأوقعه))(88).

الخاتمة ونتائج البحث :

في عصر تفشت فيه العامية وانحسرت مكانة الفصحى برز ابن معصوم المدني ناقداً موضوعياً محللاً، ومعللاً ، ومتذوقاً يعتمد في ذلك كله على ثقافته النقدية ، وخبرته في الفن الشعري، ودرايته في خفايا هذا الفن إذ قرأ النصوص الشعرية وفقاً لمنهج راسخ، وذوق مدرب صقلته المعرفة، وزانته الفطنة والذكاء ، وبذلك استطاع بحق أن يتجاوز دور الشارح التقليدي، إلى دور الناقد الأدبي، إذ ترك جهدا نقدياً ربما كان فريداً في عصر عانى من انحسار الأدب وفنونه مدعماً آراءه بما أوتي من ذوق أدبي صقلته الممارسة في الشعر والنثر، وعقلية ناضجة استوعبت كثيراً من الثقافات الواسعة التي كان يتمتع بها في العلوم العربية

لقد تميز ابن معصوم المدني عن غيره من النقاد القدماء، الذين مارسوا تطبيق النظرية النقدية، إذ استطاع من الجانب التطبيقي توظيف مختلف معطيات المنجز الثقافي والفكري بصورةٍ مختلفة، في قراءة النصوص الأدبية واستنطاقها، والكشف عن جوانب القوة والضعف فيها ،إذ يعد كتابه (أنوار الربيع في أنواع البديع) كتاباً في النقد التطبيقي، فهو يجمع كثيراً من الأمثلة والشواهد الشعرية وما دار حولها من آراء وتعليقات القدماء ،بحيث يساعد القارئ على تلمس حدود النقد بشكل جيد، وذلك بمواجهته المباشرة للنصوص، في محاولة منه لإضاءة الجوانب الخفية فيها، واستكشاف جمالياتها المخبوءة، على أن النقد العربي القديم يظل نافذة نطل منها على التراث العربي المشرق، الذي مازال إلى الآن رغم طول العهد به يثير فينا رغبة البحث والتنقيب، والتفتيش، والقراءة وإعادة القراءة ،ومع ذلك يمكننا ان نخلص إلى النتائج التي توصلنا إليها وذلك على النحو الآتي :

- إن قراءة ابن معصوم المدني وتحليلاته النصية ما هي إلا أجزاء من جهاز نقدي ضخم دشنه بكتابه (أنوار الربيع في أنواع البديع)الذي يظل بياناً نقدياً يعضد الحركة النقدية في الأدب العربي القديم .

- يولي ابن معصوم المدني الشكل والمضمون أهمية كبيرة في قراءته للنصوص الشعرية مما يجعل تحليله ذا طابع شمولي عام.

- إنّ ابن معصوم المدني في قراءته للنصوص الشعرية حاول استحضار القواعد من شتى المجالات المعرفية ، واسقاطها على النصوص المقروءة.

- يُكَيّف ابن معصوم المدني إجراءاته بحسب المهمة النصية عند قراءته للنصوص الشعرية فيستغرقه المستوى اللغوي أحياناً أو المستوى البلاغي وهكذا.

- يهتم ابن معصوم المدني بالأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية ، فيخرج احياناً عن مجال التحليل ، وقد يورد في هذا السياق آراء خلافية أو ذوقية.

- تتسم مصطلحاته بالاستقرار والثبات بما يخدم التحليل النصي بوصفه ممارسة نقدية فاعلة.

الهوامش :

1- ينظر: سلوة الغريب وأسوة الأريب ، ابن معصوم المدني ،ص84 .
2- ينظر : نفسه،29 .
3- ينظر :سبحة المرجان في آثار هندستان ، غلام علي آزاد ،86 .
4- ينظر:الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، عبد الحسين أحمد الأميني،405/11 .
5- ينظر:مصباح الفقاهة ، للسيد الخوني،15/1 ،والذريعة في تصانيف الشيعة ،محمد حسن ،369/15 .
6- نفسه .
7- ينظر: ديوان ابن معصوم المدني ،17.
8- أعلام العرب في العلوم والفنون ، عبد الصاحب عمران الدجيلي ،130/3 .
9- أنوار الربيع في أنواع البديع ،16/1 .
10- نشوة السلافة، ابن معصوم المدني ،19 .
11- ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ ابن رشيق القيرواني ،ص104 .
12- ينظر: الذريعة في تصانيف الشيعة ،محمد حسن ،ق3-754/9 ، والغدير في الكتاب والسنة والأدب ، عبد الحسين أحمد الأميني ،406/11 ، والمجدي في أنساب الطالبيين ،علي بن محمد العلوي ،27،واعيان الشيعة ،11محسن الأمين /182) .
13- أنوار الربيع في أنواع البديع ،6/169-332 .
14- نفسه .
15- ينظر : ديوان ابن معصوم المدني :365 .
16- أنوار الربيع في أنواع البديع ،28/1 .
17- ينظر :نفسه ،64/1 .
18- ينظر:نفسه ،1/114-132-3،21/29-33-364، 5/118-265 ،6/37- 71- 108 .
19- ينظر : تاريخ النقد العربي، محمد زغلول ،331/1 .
20- ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ،د أحمد مطلوب ،7/1 .
21- ينظر :ديوان ابن معصوم المدني ،637 .
22- القراءة ونظرية التلقي في النقد العربي ، محمد حسين رضا ، 306.
23- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي،5/1.
24- المعجم لأدبي، جبور عبد النور،283.
25- النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ،5.
26- ينظر: النقد البلاغي ،الدكتور أحمد مطلوب ،210 .

27- إسماعيل المقريء : هو أبو محمد شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقريء اليمني .ولد سنة 754ه.كان إماماً في الفقه والعربية والمنطق والاصول ، وله اليد الطولى في النظم والنثر.. من آثاره كتاب (عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي) وديوان شعره .توفى سنة (837ه)ينظر هدية العارفين 216/1.

28- ينظر: أنوار الربيع في انواع البديع ،94/1.

29- نفسه.

30- نفسه ،113/3.

31- نفسه .

32- أنوار الربيع في أنواع البديع،317/1 .

33- نفسه.

34- نفسه .

35- ينظر : ديوان المتنبي ،2/ 301.

36- أنوار الربيع في أنواع البديع ،70/1 .

37- ينظر : ديوان ابي نواس ،72/1 .

38- أنوار الربيع في أنواع البديع،59/4 .

39- لم أجد البيت في الديوان ، ونسبه الثعالبي إلى أبي طالب ، ينظر : أنوار الربيع ،223/5 .

40- ينظر :ديوان ذي الرمة ،33 .

41- أنوار الربيع في أنواع البديع،224/5 .

42- ينظر : ديوان بشار بن برد،335/1.

43- ينظر :ديوان المتنبي،235/1.

44- أنوار الربيع في أنواع البديع،227/5 .

45- ينظر:نفسه ،226/5 .

46- ينظر : نفسه .

47- (المراد بالتفصيل أن يعتبر في الأوصاف وجودها أو عدمها أو وجود بعضها وعدم بعضها ، كل ذلك من أمر واحد ، أو أمرين أو ثلاثة أو أكثر)،أنوار الربيع ،224/5 .

48- ينظر: نفسه،224/5 .

49- لم أجده في الديوان .

50- ينظر :أنوار الربيع في أنواع البديع ،226/5 .

51- ينظر : ديوان المتنبي ،155/1 .

52- أنوار الربيع ،237/5-238.

53- ينظر ديوان كثير عزة ،525.

54- ينظر: أنوار الربيع،250/1، وينظر: ديوان كُثير، (ودهم المهارى) في الديوان(حدب المهارى)، و(يعلم الغادي) في الديوان (ينظر الغادي).

55- ينظر :ديوان المتنبي ،360/2 .

56- أنوار الربيع في أنواع البديع ،367/2-368 .

57- ينظر :نفسه ،243/1 .
58- ينظر :نفسه، 247/1.
59- التذييل : ضرب من الاطناب ، وهو تعقيب الجملة التامة نظما كانت أو نثراً بجملة تشتمل على معناها لتوكيد منطوقها ، أو مفهومها ، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه ، أنوار الربيع في أنواع البديع ،39/3 .
60- ينظر: ديوان ابن نباته ،411 .
61- ينظر :أنوار الربيع في أنواع البديع،42/3 .
62- ينظر: أمالي القالي ،50 .
63- أنوار الربيع،187/5-189 .
64- نفسه.
65- ينظر:نفسه ،6/4.
66- ينظر:لسان العرب ، ابن منظور ،120/1 .
67- ينظر :نفسه 296/2 .
68- ينظر: مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي ،د.جابر عصفور ،60 .
69- ينظر: النقد الجمالي ، روز غريب ، 45 .
70- نفسه،71 .
71- ينظر: مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي ، د.جابر عصفور،31 .
72- ينظر: القاضي الجرجاني الاديب الناقد ، د. محمود السمرة ،115.
73- منهج النقد الأدبي عند طه حسين ،83، حديث الاربعاء ، د. طه حسين ،207/2 .
74- أنوار الربيع في أنواع البديع ، ابن معصوم ، 95/1 .
75- نفسه ،259/3 .
76- نفسه ،175/4 .
77- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الاثير ،168/1 .
78- أنوار الربيع في أنواع البديع ،59/1 .
79- نفسه ،175/4 .
80- نفسه ،5/4 .
81- ينظر :نفسه،36/4 .
82- ينظر :ديوان كثير عزة ،95 .
83- ينظر : نفسه ،35/4 .
84- نفسه ،27/4-28 .
85- ينظر : نفسه ، 8/4.
86- نفسه ،265/1-296 .
87- نفسه ،175/4 .
88- نفسه ،257/3 .

المصادر والمراجع :

1- القرآن الكريم .
2- أعلام العرب في العلوم والفنون ، عبد الصاحب عمران الدجيلي ، مطبعة النعمان النجف الأشرف 1386ه- 1966م.
3- اعيان الشيعة ، محسن الأمين ،تحقيق حسن الأمين ، مطبعة الأنصاف ، بيروت ،(د.ت).
4- أمالي القالي ، عنى بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الاصمعي ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، 1926م.
5- أنوار الربيع في أنواع البديع ،علي صدر الدين ابن معصوم المدني ،تحقيق شاكر هادي شكر ،ط1 ،مطبعة النعمان ،النجف الأشرف 1388ه – 1968 م.
6- تاريخ النقد الأدبي والبلاغة عند العرب (من القرن الخامس إلى العاشر الهجري)،د. محمد زغلول سلام ،منشأة المعارف ط1 ، الإسكندرية 2000م .
7- حديث الاربعاء ،د.طه حسين ،الطبعة الثانية عشرة ، مط دار المعارف-القاهرة 1976 .
8- ديوان ابن معصوم ،تحقيق شاكر هادي شكر ،مطبعة عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ،1408- 1972م.
9- ديوان ابن نباته، دار احياء التراث العربي ،بيروت –لبنان،(د.ت).
10- ديوان أبي نواس ،حققه وضبطه وشرحه،أحمد عبد المجيد الغزالي ،دار الكتاب العربي ، بيروت –لبنان (د.ت).
11- ديوان بشار بن برد ،جمع وتحقيق وشرح فضيلة العلامة سماحة الاستاذ الامام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ،وزارة الثقافة ، الجزائر ،2007م.
12- ديوان ذي الرمة ،حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد القدوس أبو صالح ،طبعة مؤسسة الايمان ،1982م.
13- ديوان كثير عزة ،تحقيق إحسان عباس ،دار الثقافة ، بيروت - لبنان،1971م.
14- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، محمد حسن الشهير بآغابزرك ،ط1، طهران 1383ه-1964م .
15- سبحة المرجان في آثار هند ستان ، غلام علي آزاد ،1303ه .
16- سلوة الغريب وأسوة الأريب (رحلة ابن معصوم)علي صدر الدين المدني ، تحقيق شاكر هادي شكر ،ط1 ، منشورات عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ،1408ه -1988 م .
17- شرح ديوان المتنبي ،وضعه عبد الرحمن البرقوقي ،دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ،1979م.
18- طبقات فحول الشعراء ،محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة (د.ت) .
19- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ابن رشيق القيرواني ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ، بيروت 1972 .
20- الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ،1397ه ، 1977م .

21- القاضي الجرجاني الأديب الناقد ،د.محمود السمرة .مط المكتب التجاري للطباعة ، بيروت 1966م .
22- القراءة ونظرية التلقي في النقد العربي ، محمد حسين رضا المبارك ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد 1994.
23- لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور) ،دار صادر ،2003 .
24- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين نصر الله بن الأثير ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1358ه-1939م .
25- المجدي في أنساب الطالبيين، علي بن محمد العلوي العمري (ت.ق.15 ه)، تحقيق أحمد المهدوي الدامغاني ،ط1 ، مطبعة سيد الشهداء ، نشر مكتبة آية الله المرعشي ، 1409ه، طبع ونشر دار البلاغة ، بيروت ، 1412ه .

26- مصباح الفقاهة ، السيد الخوني (ت1413ه)،ط3 ، مطبعة الغدير ، نشر مؤسسة وجداني (د.ت).
27- نشوة السلافة ومحل الإضافة ،محمد علي بن بشارة آل موحي ، تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم ، مطبوعات مكتبة الإمام الحكيم العامة ، النجف (د .ت) .
28- المعجم الأدبي، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ،ط2، بيروت 1948م .

29- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، الدكتور أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1403ه- 1983م .
30- مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي ،د.جابر عصفور ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط5 ،1995.

31- النقد البلاغي ،د أحمد مطلوب ، مجلة المجتمع العلمي العراقي ،ج32،م 38 ، حزيران 1987 .
32- النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ،ط2 ، 1983م.

33- النقد المنهجي عند العرب ،د. محمد مندور ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة (د.ت) .
34- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ،إسماعيل باشا البغدادي ، استانبول ، 1951م.